من حوادث بلاد الشام المجهولة

أشرنا في مقالنا الذي وصفنا به كتاب شرح مختصر القدوري « مجلة المجمع العلمي مجلد ١٦ ص ٥٠٦ » الى حادثة اعتصاب واضراب وقعت بحماة سنة ٨١٠ هـ دوّنها احد الذين تملكوا ذلك الكتاب في ثلاث صفحات أولاها كتبت بحبر أحمر والاثنتان الأخريان بحبر أسود . وبما ان هذه الحادثة لم ترد في كتب التاريخ وهي على كل حال من حوادث بلاد الشام فاننا ننقلها الى القراء الكرام لانها تدلُّ على أحوال ذلك العصر الاجتماعية والسياسية وهذا ما دونه الكاتب المجهول بحرفه وأغلاطه اللغوية ولهجته العامية :

(بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان بتاريخ رابع عشرين ربيع الآخرة سنة احدعشر وثمانمائة وجد في قمين[1] حمام صارم الدين البرّاني قتيلاً ما يعلم من قتله .

قيل انه مجنوناً انصرع فوقع من فوق سطح السوق بالمنصورية وقيل انه كان قرندكياً (؟) شرب خمراً بالمرج فعربدوا جميع الشراب فقتل بينهم ولم يظهر له غريماً فأدخلوه الى القمين المذكور وقيل انهم وضعوه الدولة لما تقدمه من قتيل غيره وجد في قمين حمام الحسام فأخذوا عليه من داخل المدينة ذهباً وقدره سبعمائة ديناراً فأرادوا ان يأخذوا من خارج المدينة نظير ذلك فتوفي مريضاً بالمارستان فجرحوه ووضعوا على جراحاته قليلاً من الدم ووضعوه في القمين المذكور وجهزوا الولاة في طلب كبارية[2] خارج المدينة وهم الدبيس وكان نصرانياً فأسلم ووالي المنصورية وهو ابن ميّاسة فأحضروا من المحالبة الحاج احمد بن الخطيب سليمان ومن المشارقة جماعة يغني عن ذكرهم شهرتهم ومن باب دمشق جماعة من جملتهم عبد الملك الدقاق ومن المنصورية جماعة منهم الشيخ الجيد العارف بالأشقة فأحضروهم الى بيت بدن[3]

(١) في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لاحمد الخفاجي صفحة ١٦٥ : قمين هو موقد نار الحمام

(٢) كبارية هنا بمعنى الأعيان والوجوه

(٣) يظهر ان تعبير بيت بدن يطلق على بيت السكن الخاص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجناب العالي لا أعلاه الله جار قطلي نائب حماة فقال لهم من قتل هذا فتقدم اليه الخطيب سليمان الحلبي وقال له ما يعلم الغيب الا الله عز وجل فأطرق قليلاً وأمرهم بإدخالهم المسجد وهم قريب من ستون رجلاً

فلما كان قبل تاريخه قامت الناس اجتمعت أهل المنصورية وخارج المدينة وداخلها اجتمعت الناس محصلين ملبسين مقاتلين

فلما انقضى نهار ما ذكرناه لم يُفتح داخل المدينة ولا خارجها دكاناً ولا ضعّاماً ولا خبازاً ولا قطاناً ولا بياعًا ولا أحداً بالجملة الكافية

فلما أتى نهار ما ذكرناه في اول الحديث اجتمعت الناس فبقي كل مائة رجل جملة واحدة وهم يقولون الله اكبر الله اكبر .

فبينما شاهين المهمندار[١] هو نازل الى دار السعادة[٢] ، اذ رأى بعضهم فأتى مسرعًا الى الدوادار[٣] ورأس نوبته[٤] فاعلمهم بذلك فلم يقدر أحداً يقابله بذلك

فبينما هم يكبرون اذ خرج الأمير الكبير[٥] وهو يومئذ الأمير صلجي طالبًا داره فحطوا أيديهم فيه ورجموه فلم يقدر يخرج فأتى الجار قطلي فأعلمه بذلك فطلب نفسه يركب عليهم فلم يمكنوه وهم الدوادار والجرندار ؟[٦] والاستادار[٧] وناظر الخبر[٨] وكان الرجم له واجتمعت الناس في ذلك اليوم وكان يوماً مشهوداً مشهوراً .

(١) المهمندارية : موضوعها تلقي الرسل الواردين كما في صبح الأعشى للقلقشندي

(٢) دار السعادة هي دار الحكومة ومقر نائب السلطنة

(٣) الدوادارية : موضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وابلاغ عامة الامور وتقديم القصص اليه والمشاورة على من يحضر

(٤) رأس النوبة : موضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم

(٥) الأمير الكبير : لم يذكر القلقشندي موضوع الأمير الكبير والراجح انه المسمى بالاتابك وهو اكبر الأمراء المقدمين وليس له وظيفة .

(٦) هكذا في الأصل وفي صبح الأعشى إمرة جاندار : موضوعها ان صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل امامهم الى الديوان

(٧) الاستادارية : موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ويمشي بطلب السلطان

(٨) لم يذكرها القلقشندي واسمها يدل على مسماها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخرّب في ذلك النهار دكانان من تحت باب القلعة وأخذوا خشبها وسقيفة الحاج علي البيطار وأخذ أربعة احمال حطب وهرجت الناس للعدد والسيوف والدرق والمقاليع ودُرّبت الزقاقات والدروب وطلب بعض الناس القلعة فخرج بعضهم وأقلهم فبقي في القلعة نحو من الفين رجلاً وبقي على الأسوار[١] وخارج المدينة والمنصورية والبساتين والأبواب بقي نحو من أربعة آلاف رجلاً وصفصفوا الرجال ونصب السنجق[٢] على باب العدة وصاحت الناس فرديد واحدة الله اكبر الله اكبر وكان يوماً عبوساً قمطريرا فقعدوا ومرّ عليهم ساعة زمانية الى قرب الظهر والناس قاعدون يصيحون الله اكبر يُسمع صوتهم من بُعد ميل

ثم بعد ساعة امر المهمندار ان يخرج ويحدثهم بكل لين فخرج وقال يا جماعة الخير ما هذا انصرفوا لانه قال لا يأخذوا منكم شيء بالجملة ولا بالمفرق وانما هو عمل هذا ليظهر غريم هذا المقتول فلم يظهر بعد فانصرفوا ولا قلنا ولا قلتم قولوا نستغفر الله ولا نعود الى مثلها .

وكان المهمندار هو والأمير صلجي فلمّن قال هذا أحاطوا أيديهم فيه بالضرب قال بعض الحضار بقي الناس تضرب الحجارة وهي تنزل كما تنزل من السقف ..... الى جار قطلي وكان شيخاً مجنوناً قد بلغ من العمر ثمانين سنة وهو يشرب الخمر .

ثم بعد ذلك جهز الحاجب[٣] المسمي بسودون العلائي فقال لهم يا جماعة الخير ما هذا الذي بتعملوه يغضب وهذا ما هو مليح نكشتوا عرضكم وعرضه . امضوا الى شغلكم والماضي ما يعاد وانا أضمن لكم ما أقوله لكم

قالوا لا سمعاً ولا طاعة لك في ذلك ثم انهم ضربوه بالحجارة فما قدر ان يتوقف ساعة واحدة فرجع الى النائب واعلمه بذلك فاغتمّ غمّاً شديداً .

ثم بعد ذلك جهز المهمندار ايضاً والحاجب المدلق طريق آخر فضربوهم من القلعة الى ان لا يقدروا يوصلوا الى دار السعادة وقعد ذلك النهار[٤] بلا سماط ولا

(١) يعني الاسوار المحيطة بالمدينة (٢) السنجق كلمة تركية

(٣) الحجوبية : موضوعها ان صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب ان كان وعرض الجند (٤) يظهر من سياق الكلام ان الذي بقي بلا سماط هو النائب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكل ولا شرب فأتى اللحم من المذبح فرجموا صاحبه وأخذوه من يده وكان قبل ذلك بعشرة أيام وسّط[1] الشيخ الطوشي وعمر مقدّم بني هزيم بغير ذنب ولا جرمه وقبل تاريخه بيوم قطع إيد ورجل الشب البطاط

وفي تاريخه رجل مسمى شاهين الكاشف وهو سكران فخرج على العسور وضرب اربعة خمسة اسيم فجرح اثنان وقتل شاباً اسكافاً وهرب .

وجاء في تاريخه مطر شديد وقدره مجيئه من بكرة الى عشاء الآخرة وهو سيل عظيم وقعدوا اناس في القلعة حتى اذا خرج احداً صاحوا فتجمع الناس بسرعة

وهذا ما انتهى الينا من ذلك وكان رابع عشرين ربيع الآخرة نهار الأحد سنة احد عشر وثمانمائة)

* * *

أما الأمير الكبير سيف الدين جار قطلي فقد وُلي نيابة حماة مرة بعد أُخرى ثم ولي نيابة حلب والشام وصار اتابك العساكر بالديار المصرية وتوفي سنة ٨٣٧ هـ ١٤٣٣ م وهو في عشر السبعين كما يقول يوسف بن تغري بردي « في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جزء ٦ صفحة ٨٣١ من طبعة ليدن »

اما شاهين المهمندار والأمير الكبير صلجي فلم نعثر لهما على خبر « في الكتاب المذكور ولا في تاريخ مصر لابن اياس »

اما الحاجب سودون فقد ورد ذكره في النجوم الزاهرة « ج ٦ ص ٤٠٩ » باسم الأمير سودون السيفي علان بسبب استقرار الأمير اقبغا الاستدمري حاجباً بحماة بدلاً من سودون المذكور في سنة ٨٢٣ هـ ١٤١٩ م

وجاء اسم سودون العلائي بمناسبة الانعام عليه بإقطاع الأمير الطنبغا الصغير رأس نوبة النوب المستقر في نيابة حلب سنة ٨٢٤ هـ ١٤٢١ م

وبما ان هذه الحادثة تكوّن صفحة من تاريخ بلاد الشام وتنم على سوء ظن المحكومين بالحاكمين في تلك الأيام فهي حرية بالتدوين .

عبد الله مخلص

(١) هو اجلاس الرجل على أداة من حديد حادة الرأس واعدامه بهذه الصورة البشعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net